بجميع حكم نافع وفي معناه قالوا انجرى عليك ما صرفه وهموم سرك مطرق قال الشارح رضي الله
عنه قوله والسكوت على نوعين سكوت بالظاهر وهو سكوت اللسان وسكوت بالباطن وهو
هدو الضمير والجنان وكما ان سكوت اللسان يختلف تارة لخوف الزلل وتارة لحصول المطلوب
والامل فكذلك الباطن يكون السكوت للوثوق بالضمان وهو سكوت المتوكل وقد يكون السكوت
فيه رضي بما جرى به الحق قبولا لما سبق في الازل فالعارف ساكن تحت جريان الاقدار رضي بما جرى به
المقدر له المختار والمتوكل ساكن لما وعده من الضمان لا يخشى مع ضمان مولاه له فوت
ما ضمنه له فالبيت مخصوص باحوال العارف وهو الذي ينظر الى الاقدار وتغيرها عليه في
الليل والنهار وسره مطرق راض لاختيار ربه ولا اعتراض قال الامام رضي الله عنه وربما
يكون سبب السكوت حيرة البديهة فانه اذا ورد كشف على وصف البغتة خرست العبارة
عنه فلا بيان ولا نطق وطمست الشواهد هنالك فلا علم ولا حس قال الله تعالى يوم يجمع الله
الرسل فيقول ماذا اجبتم قالوا لا علم لنا قال الشارح رضي الله عنه حاكيا الشيخ ههنا
من ورود هيبة تذهل عن الادراك وتنفي معها التحسس للشواهد وتخرس اللسان
عن الجواب واستدل عليه بالاية وقد بينا ان للاية محملين احدهما كمال الادب في رد العلم
اليه وانهم علم لهم زيادة على علمه بما بالغوه للامم والثاني دهشة السؤال فليس فيه
ما اشار اليه الامام من الغيبة وعدم الادراك والحس لانهم قد ذكروا الجواب ويحسن
ان يورد ههنا قوله تعالى فعميت عليهم الانباء يومئذ فهم لا يتساءلون وذلك اذا سال
الحق سبحانه الامم بقوله ماذا اجبتم المرسلين فاخذتهم صدمة العزة وسطوة السؤال حتى ذهلوا
عن الجواب وعن سوال بعضهم بعضا عن وجه الصواب قال الامام رضي الله عنه فاما
ايثار ارباب المجاهدة السكوت فلما علموا في الكلام من الافات ثم ما فيه من حظ النفس
واظهار صفات المدح والميل الى ان يتميز بين اشكاله بحسن النطق وغير هذا من افات
الخلق وذلك نعت ارباب الرياضة وهو احد اركانهم في حكم المنازلة وتهذيب الخلق
وقيل ان داود الطائي رحمه الله لما اراد ان يقعد في بيته اعتقد ان يحضر مجلس ابي حنيفة
رحمه الله اذ كان تلميذا له ويقعد بين اقرانه من العلماء ولا يتكلم في مسئلة فلما قوي نفسه
على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة قعد في بيته عند ذلك واثر العزلة قال الشارح
رضي الله عنه وما ذكره الامام في ان صمت اللسان مما يعين على السلامة من الوقوع في الغرور
وسعود الانسان بامساكه القدرة على غيره مما يصعب من الامور صحيح فان اللسان اصعب
شي على الانسان وقد الزم نطق السادة العظماء افضل الامة ابو بكر الصديق رضي الله عنه
لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما لما راه اخذا بلسانه فقال له عمر مه غفر الله لك فقال هذا
الذي اوردني الموارد وقد دل على ذلك الخبر الصحيح في الموطا عن ابي هريرة قال ان الرجل

ليتكلم

ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالا يهوي بها في نار جهنم وكذلك روي ابن عباس اخذ بثمرة لسانه
يقول للسانه قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم ويعضده ما رواه مالك في الموطا يرفعه
الى بلال بن الحارث المزني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الرجل ليتكلم بالكلمة
من رضوان الله ما كان يظن ان تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه الى يوم القيامة
وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن ان تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها سخطه
الى يوم القيامة فدل جميع ذلك على ان حفظ اللسان من اهم الامور وذلك ان ترجمان
عما في القلب ولا يتاتى له ان يسلم لسانه حتى يتثبت بقلبه فيلزم من سلامة لسانه
عن الزلل كمال تثبته بقلبه خوفا من الخلل فهذا كان الصمت حتى يتبين للعبد صحة ما يقول
من اجل المامول واذا كان على لسانه اضبط واقوى كان في عينه وسمعه وبقية اعضائه
امكن واولى ولهذا كان الصمت من اركان المجاهدة ولكن ينبغي ان يتنبه على مجاهدة نفسه
في صمت اللسان ان يحتفظ من الاشارات والكتابة وغير ذلك مما يقوم مقام الاقوال فرب
شخص ساكت بلسانه وهو متكلم بغير ذلك من افعاله فان اللسان يدل على ما قام بالجنان
وكذلك لا بد لغيره من الاشارة والانفعال والكتابة ولحظ العين وغير ذلك مما يحصل به الافهام
فيتوهم العبد انه ساكت وهو متكلم فيغتر بسكوت اللسان وهو متكلم بغير ذلك مما اشرنا
اليه الان ولذلك اورد الامام الحكاية عن داود الطائي وكان من اصحاب ابي حنيفة فطلبت
نفسه منه الخلوة حتى يسلم من الافات الكلام في الجدال والخصام فقال لنفسه حتى تجالسهم
سنة ولا تتكلمي فجلس مع اصحابه الذي كان يجالسهم في الفقه وتمر المسئلة وهو اشهى الى
الكلام فيها من العطشان للماء البارد ولا يتكلم فلما دام على ذلك سنة وعرف من نفسه قوة عزمه
وموافقته ذلك اعتزل الناس ومن لم يجاهد نفسه الى ان تتغير اخلاقه وعوائده الذميمة الى الحميدة
ما الذي يفيد حبسه لنفسه خاصة من غير قصد الى تغير اخلاقه فانه اذا كان كذلك وحبس
نفسه من الزمان ما عساه ان يحبسها من غير قصد لرياضة اخلاقه فاذا سيبها رجعت الى
حالها الاول وكانت غايته سلامة منه وقت الحبس خاصة واخلاقه الذميمة باقية لم تتغير
قال الامام رضي الله عنه وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه اذا اكتب كتابا واستحسن
لفظه مزق الكتاب وغيره قال الشارح رضي الله عنه وهذا اورده الامام على ما تقدم
من اقسام الكلام وهو ان الانسان قد يسكت سلامة من الوقوع في الزلل من الغيبة والنميمة
وسوء القول وقد يسكت اذا استحسن من نفسه الكلام ردا على نفسه هواها وخوفا من العجب
بالقول والعمل ولذلك كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه اذا كتب كتابا واستحسن ما جرى
على لسانه فيه من الكلام واحس من نفسه الاستحسان رد على نفسه هواها ومزق الكتاب وغيره وغيره
على غير ذلك الوجه اخذا بقوله تعالى ونهى النفس عن الهوى قال الامام رضي الله عنه سمعت الشيخ

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)